

تفسير البحر المحيط

@ 159 @ يعرفه الجاهل من التمتع بزخارفها والتنعم بملاذها ، وباطنها وحقيقتها أنها مجاز للآخرة ، يتزود إليها منها بالطاعة والأعمال الصالحة ؛ وهم الثانية توكيد لهم الأولى ، أو مبتدأ . وفي إظهارهم على أي الوجهين ، كانت تنبيه على غفلتهم التي صاروا ملتبسين بها ، لا ينفكون عنها . و { فِى أَنْفُسِهِمْ } : معمول ليتفكروا ، إما على تقدير مضاف ، أي في خلق أنفسهم ليخرجوا من الغفلة ، فيعلموا أنهم يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا فقط ، ويستدلوا بذلك على الخالق المخترع . .

ثم أخبر عقب هذا بأن الحق هو السبب في خلق السموات والأرض ؛ وأما على أن يكون { فِى أَنْفُسِهِمْ } طرفاً للفكرة في خلق السموات والأرض ، فيكون { فِى أَنْفُسِهِمْ } توكيداً لقوله : { يَتَذَكَّرُونَ } ، كما تقول : أبصر بعينك واسمع بأذنك . وقال الزمخشري : في هذا الوجه كأنه قال : أو لم يحدثوا التفكير في أنفسهم ؟ أي في قلوبهم الفارغة من الفكر . والفكر لا يكون إلا في القلوب ، ولكنه زيادة تصوير لحال المتفكرين ، كقولك : اعتقده في

قلبك وأضمرة في نفسك . وقال أيضاً : يكون صلة المتفكر ، كقولك : تفكر في الأمر وأجال فكره . و { مَا خَلَقَ اللَّهُ } متعلق بالقول المحذوف ، معناه : أو لم يتفكروا ، فيقولوا هذا القول ؟ وقيل معناه : فيعلموا ، لأن في الكلام دليلاً عليه . انتهى . والدليل هو قوله : { أَوْ لَمْ * يَتَذَكَّرُوا } . وقيل : { أَوْ لَمْ * يَتَذَكَّرُوا } متصل بما بعده ، ومثله : ثم { يَتَذَكَّرُوا } ما بصاحبه هم مِّنْ جِنَّةٍ ، ومثله : { وَظَنَّوْاْ مَا لَهَا مِنْ مَّحْصِيٍّ } ، فيكون في بمعنى الباء ، ثم { يَتَذَكَّرُوا } ما بصاحبه هم مِّنْ ، كأنه قال : أو لم يتفكروا بقلوبهم فيعلموا . انتهى . ويجوز أن يكون تفكروا هنا معلقة ، ومتعلقها الجملة من قوله : { مَا خَلَقَ } إلى آخرها . و { فِى أَنْفُسِهِمْ } : طرف على سبيل التأكيد ، لأن الفكر لا يكون إلا في النفس ، كما أن الكتابة لا تكون إلا باليد . و { بِرِالْحَقِّ } : في موضع الحال ، أي وهي ملتبسة بالحق مقترنة به ، وتقدير أجل مسمى لا بد لها أن تنتهي إليه وهو : قيام الساعة ، ووقت الحساب والثواب والعقاب . ألا ترى إلى قوله : { أَفَحَسِبْتُمْ أَنْ زُمَّمَا

خَلَقْنَاهُكُمْ عِبْثًا وَأَنْ زُمَّكُمْ إِلَّا لِيُنْزِلَا تُرْجَعُونَ } . كيف سمى تركهم غير راجعين إليه عبثاً ؟ والمراد بلقاء ربهم : أجل المسمى . .

وقال ابن عطية : { إِلَّا بِرِالْحَقِّ } ، أي بسبب المنافع التي هي حق واجب ، يريد من الدلالة عليه والعبادة له دون فتور ، والانتصار للعبارة ومنافع الإرفاق وغير ذلك . }

وَأَجَلٌ عَلَى الْحَقِّ ، أَي وَبَاجِلٌ مَسْمُومٌ ، وَهُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ . فِي الْآيَةِ إِشَارَةٌ إِلَى الْبَعْثِ وَالنُّشُورِ وَفَسَادِ بَنِيهِ هَذَا الْعَالَمِ . ثُمَّ أَخْبَرَ عَنْ كَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِذَلِكَ الْمَعْنَى ، فَعَبَّرَ عَنْهَا بِلِقَاءِ اللَّهِ ، لِأَنَّ لِقَاءَ اللَّهِ هُوَ عَظِيمُ الْأَمْرِ ، فِيهِ النِّجَاةُ وَالْهَلَكَةُ . انْتَهَى . . .

وَقَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ الرَّازِي : قَدِمَ هُنَا دَلَائِلُ الْأَنْفُسِ عَلَى دَلَائِلِ الْآفَاقِ ، وَفِي : { سَنُذَرِّيهِمْ } آيَاتٌ تَبَيَّنَتْ فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ { دَلَائِلُ الْآفَاقِ عَلَى دَلَائِلِ الْأَنْفُسِ ، وَحِكْمَةٌ ذَلِكَ أَنَّ الْمَفِيدَ يَذْكُرُ الْفَائِدَةَ عَلَى وَجْهِ يَخْتَارُهَا ، فَإِنْ فَهَمْتَ ، وَإِلَّا انْتَقَلَ إِلَى الْأَبِينِ . وَالْمُسْتَفِيدُ يَفْهَمُ أَوَّلًا الْأَبِينَ ، ثُمَّ يَرْتَقِي إِلَى الْأَخْفَى . وَفِي { أَوْ لَمْ } * يَتَذَكَّرُوا { بِفَعْلٍ مُسْنَدٍ إِلَى السَّمَاعِ ، فَبَدَأَ بِمَا يَفْهَمُ أَوَّلًا ، ثُمَّ ارْتَقَى إِلَيْهِ ثَانِيًا . وَفِي { سَنُذَرِّيهِمْ } أَسْنَدٌ إِلَى الْمَفِيدِ ، فَذَكَرَ أَوَّلًا ، الْآفَاقَ ، فَإِنْ لَمْ يَفْهَمُوا ، فَالْأَنْفُسَ ، إِذْ لَا ذَهُولَ لِلْإِنْسَانِ عَنْ دَلَائِلِهَا ، بِخِلَافِ دَلَائِلِ الْآفَاقِ ، لِأَنَّهُ قَدْ يَذْهَلُ عَنْهَا ، وَهَذَا مُرَاعِي فِي { السَّادِّينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا } الْآيَةِ . بَدَأَ بِأَحْوَالِ الْأَنْفُسِ ، ثُمَّ بِدَلَائِلِ الْآفَاقِ . وَقَالَ أَيْضًا هُنَا : { وَإِنْ كَثِيرًا } ، { وَقَلِيلًا } ، { وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ } ، وَذَلِكَ أَنَّ هُنَا ذِكْرَ كَثِيرٍ بَعْدَ ذِكْرِ الدَّلَائِلِ الْوَاضِحَةِ ، وَهُمَا : { أَوْ لَمْ } * يَتَذَكَّرُوا { فِي أَنْفُسِهِمْ } ، وَ { مَا خَلَقَ اللَّهُ } . وَالْإِيمَانُ بَعْدَ الدَّلَائِلِ أَكْثَرُ مِنَ الْإِيمَانِ قَبْلُهَا ، فَبَعْدَ ذِكْرِ الدَّلِيلِ ، لَا يَدَّ أَنْ يُؤْمِنَ مِنْ ذَلِكَ الْأَكْثَرِ جَمْعٌ ، فَلَا يَبْقَى الْأَكْثَرُ . انْتَهَى ، وَفِيهِ تَلْخِيسٌ . وَلَا يَتِمُّ كَلَامُهُ الْأَوَّلُ إِلَّا إِذَا جَعَلَ { فِي أَنْفُسِهِمْ } مُحَلًّا لِلتَّفَكُّرِ ، وَجَعَلَ { مَا خَلَقَ } أَيْضًا مُحَلًّا ثَانِيًا . . .

{ أَوْ لَمْ } * يَسِيرُوا { فِي الْأَرْضِ } : هَذَا تَقْرِيرُ تَوْبِيخٍ ، أَي قَدْ سَارُوا وَنَظَرُوا إِلَى مَا حَمَلَ مِمَّنْ كَانَ قَبْلَهُمْ مِنْ مَكْذِبِي الرِّسْلِ ، وَوَصَفَ حَالَهُمْ مِنَ الشَّدَةِ وَإِثَارَةِ الْأَرْضِ وَعِمَارَتِهَا ، وَأَنَّهُمْ أَقْوَى مِنْهُمْ فِي ذَلِكَ . قَالَ مُجَاهِدًا : { وَأَثَارُوا فِي الْأَرْضِ } : حَرَثُوهَا . وَقَالَ الْفَرَاءُ : قَلْبُوهَا لِلزَّرَاعَةِ . وَقَالَ غَيْرُهُمَا : قَلْبُوا وَجْهَ الْأَرْضِ لاسْتِنْبَاطِ الْمِيَاهِ ، وَاسْتِخْرَاجِ الْمَعَادِنِ ، وَإِلْقَاءِ الْبُذُرِ فِيهَا لِلزَّرَاعَةِ ؛ وَالْإِثَارَةُ : تَحْرِيكُ الشَّيْءِ حَتَّى يَرْتَفِعَ تَرَابُهُ . وَقَرَأَ أَبُو جَعْفَرٍ : وَآثَارُوا الْأَرْضَ ، بِمَدَّةٍ بَعْدَ الْهَمْزَةِ . وَقَالَ ابْنُ مُجَاهِدٍ : لَيْسَ بِشَيْءٍ ، وَخَرَجَهُ أَبُو الْفَتْحِ عَلَى الْإِشْبَاعِ كَقَوْلِهِ : .

وَمِنْ ذِمِّ الزَّمَانِ بِمَنْتَزَاحٍ